المحاضرة السادسة: الخطاب عند النقاد

تمهيد:

المحور الأول: الإطار النظري والمفاهيمي للخطاب

يعد الخطاب من المصطلحات التي تجاذبتها العديد من التوجهات المعرفية، فنجد أن الخطاب من خلال الرؤية اللسانية هو: هو وحدة لغوية كبرى تتجاوز حدود الجملة، وتتميز بالتماسك والترابط (Cohesion and Coherence).يُنظر إليه كسلسلة من الجمل التي تشكل معًا رسالة متكاملة ووظيفية ضمن سياق معين.

أما من الناحية التداولية هو ممارسة لغوية يُنظر إليها من زاوية المقصد والسياق .الخطاب هو النص مُضافًا إليه السياق التواصلي (المتحدث، المتلقي، الزمان، المكان، الهدف). يُركز على وظيفة اللغة بدلاً من شكلها.

أما من الناحية النقدية فهو مجموعة من الأقوال والمفاهيم التي تنظم وتشكل طريقة فهمنا لموضوع معين في سياق اجتماعي أو تاريخي محدد. وفقاً لمنظرين مثل ميشيل فوكو، الخطاب ليس مجرد كلام، بل هو آلية لإنتاج المعرفة والسلطة؛ أي الطريقة التي يتحدث بها مجتمع ما عن موضوع معين (كالجنون، أو المرض، أو السلطة)، مما يُحدد ما هو مقبول أو مرفوض.

نشأة مفهوم الخطاب وتطوره:

أسس الفهم الغربي الكلاسيكي للخطاب بشكل رئيسي على الفلسفة اليونانية، وخاصة أعمال أرسطو الذي لم ينظر إلى الخطاب على أنه مجرد تبادل كلامي، بل كفن للإقناع ومنهج للتفكير المنطقي.

الخطاب كفن الإقناع (البلاغة)

أسس أرسطو الفهم الكلاسيكي للخطاب في كتاب "الخطابة"، معرّفاً إياه بـ "القوة على النظر في كل ما يحتمل أن يتوافر فيه الإقناع". وضع أرسطو الخطاب في قلب العملية التواصلية من خلال تحديد أركان الإقناع الثلاثة التي يجب على الخطيب إتقانها. هذه الأركان هي:

الإيتوس: المتعلق بمصداقية المتحدث.

الباتوس: المتعلق بالعواطف المثارة لدى الجمهور.

و**اللوغوس:** المتعلق بالحجج والبراهين المنطقية.

الخطاب كبنية منطقية (الجدل)

ربط أرسطو الخطاب ارتباطاً وثيقاً بالمنطق في كتابه **"الجدل"**، مفرّقاً بين نوعين من الحجج. في حين يستخدم **القياس المنطقي** في العلوم لإنتاج نتائج يقينية، فإنه يستخدم القياس الخطابي/القياس المضمر في الخطابة. يتميز هذا الأخير بحذف إحدى مقدماته لافتراض أنها مقبولة لدى الجمهور، مما يؤدي إلى احتمال أو ظن راجح بدلاً من اليقين. يؤكد هذا التمييز أن الخطاب بنية منطقية تهدف إلى بناء رأي في سياق غير يقيني كالقانون والسياسة.

التطور في اللسانيات (سياق الجملة إلى ما يتجاوزها).

حدود الجملة وتجاوزها

كانت اللسانيات البنيوية والتقليدية تنظر إلى الجملة كوحدة التحليل القصوى، مركزة على القواعد النحوية الداخلية ومعزولة عن الاستخدام الفعلي. أدى هذا القصور إلى ظهور لسانيات النص التي نقلت الاهتمام إلى الخطاب كوحدة لغوية كبرى .هنا، ظهرت مفاهيم أساسية مثل التماسك لوصف الروابط الشكلية، والترابط لتفسير الاتساق الدلالي والمنطقي بين أجزاء الخطاب المتعددة.

ربط اللغة بالسياق

لم يكتف التطور بتحليل الترابط الداخلي، بل حدث تحول جذري بربط اللغة بالسياق الخارجي والمقصد . ساهمت التداوليات وعلم اللغة الاجتماعي في تحويل الخطاب من مجرد بنية إلى ممارسة لغوية ووظيفية .أصبح الخطاب يُفهم كفعل تواصلي يُنجز هدفاً معيناً (كالإقناع أو الأمر) ضمن شروط اجتماعية وتاريخية محددة. هذا التوسع هو ما مهّد الطريق لتحليل الخطاب الحديث بمناهجه المختلفة.

الخطاب في النقد العربي القديم:

لم يستخدم النقد العربي القديم مصطلح الخطاب بالمعنى النظري الحديث، لكنه تناول بوعي عميق جوانب الخطاب المتعددة تحت مفاهيم مرتبطة. ركز النقاد القدامى بشكل كبير على "الخطبة "كأبرز أشكال الخطاب، حيث درسوا آليات الإقناع والتأثير فيها وأركانها، مما يوازي اهتمام أرسطو بالبلاغة. كما اهتموا بـ**"الكلام"** و**"الحوار"** في النصوص الأدبية (كالشعر والرسائل)، مركزين على الجودة اللغوية، والمناسبة (السياق)، والمقصد الذي يتوجه إليه النص، معتمدين على فكرة أن لكل مقام مقال، وهي فكرة جوهرية في تحليل الخطاب.

هذا التركيز على الجانب التواصلي والسياقي للنص جعلهم يتناولون قضايا جوهرية في الخطاب. فمفاهيم مثل عمود الشعر، أو نقدهم لـاللفظ والمعنى وعلاقتهما بـالمتلقي، كانت تهدف في جوهرها إلى تحليل بنية الرسالة وقدرتها على تحقيق التأثير. كما أن دراستهم لـالبيان والمعاني في سياقها الديني (كتحليل الخطاب القرآني) والاجتماعي عززت النظرة إلى النص كرسالة منظمة ومقنعة تؤدي وظيفة اجتماعية أو بلاغية محددة. بالتالي، كانت رؤيتهم للخطاب رؤية وظيفية وإن لم تُصَغ في إطار نظري موحد تحت مصطلح الخطاب الحديث.

لم يغفل النقاد العرب القدامى البعد التواصلي والسياقي للخطاب، فقد ارتبطت قيمة النص لديهم بمدى ملاءمته للمقام الذي قيل فيه، وهي فكرة جوهرية تُعد إرهاصاً مبكراً لمفهوم السياق التواصلي. ظهر ذلك جلياً في مبادئ مثل قاعدة "لكل مقام مقال"، وفي التركيز على المتلقي عند تقييم جودة الشعر (مماثل لمفهوم الباثوس عند أرسطو)، حيث كانت البلاغة تُقاس بمدى قدرة الخطاب على التأثير والإقناع وتحقيق مقصد المتحدث. كما أن

دراسة فنون الخطابة والرسائل ركزت على كيفية بناء النص لتحقيق هدف تواصلي واضح، مما يؤكد وعيهم بأن النص ليس بنية مغلقة، بل رسالة مفتوحة على شروط إنتاجها وتلقيها.

المحور الثاني: الخطاب في النقد الحديث (الاتجاهات والمناهج)

الخطاب في البنيوية وما بعدها:

ركزت البنيوية في بدايتها، متأثرة بفرديناند دي سوسير واللسانيات التوليدية، على الجملة كوحدة تحليل قصوى، مفضلة دراسة نظام اللغة) النسق (على استخدامها الفعلي) الكلام .(في هذه المرحلة، كان يُنظر إلى الخطاب غالباً على أنه مجرد نص أو متوالية من الجمل، وكان الاهتمام ينصب على كشف قواعد التماسك والترابط الداخلي لتلك الجمل، بمعزل عن شروط إنتاجه الخارجية أو مقاصده الاجتماعية والسياسية. وبذلك، ظل مفهوم الخطاب محدوداً ومقيداً بالآليات اللغوية، ولم يتجاوز كونه إطاراً لوصف علاقات الإحالة والربط بين مكونات النص، مما أدى إلى تجاهل تام لأبعاد السياق والسلطة الكامنة في اللغة.

1. الخطاب والسلطة عند ميشيل فوكو

اختار ميشيل فوكو (Michel Foucault) تعريفاً جذرياً للخطاب، مركزاً على بعده الاجتماعي والسياسي. يقول فوكو في كتابه "نظام الخطاب" (discours du L'Ordre) (1971): "الخطاب ليس ببساطة ما يُعبِّر عن الصراعات أو أنظمة السيطرة، بل هو الشيء الذي تُصنَع من خلاله الصراعات وأنظمة السيطرة." يحلل فوكو الخطاب هنا باعتباره ممارسة لا مجرد كلام، فبمجرد صياغة موضوع ما ضمن خطاب معين (مثل "خطاب الجنون" أو "خطاب الجريمة")، فإن هذا الخطاب يُنتج معرفة محددة حول الموضوع ويستبعد غيرها. الخطاب، وفقاً لفوكو، ليس مجرد انعكاس للسلطة؛ بل هو الأداة الفعالة التي تُمارس وتُشرِّع بها السلطة نفسها، حيث تُحدد ما هو صحيح أو مقبول أو شرعي في مجتمع معين وفي زمن محدد. لذا، يصبح تحليل الخطاب هو تحليل لـ**"آليات المنع والاستبعاد"** التي تنظم المعرفة.

2. الخطاب والأيديولوجيا عند تون فان دايك

يُعد تون فان دايك (Teun A. van Dijk) أحد أبرز مؤسسي التحليل النقدي للخطاب، يركز على العلاقة بين الخطاب والأيديولوجيا. يقول فان دايك في كتابه "الأيديولوجيا: مقاربة متعددة التخصصات" (Ideology: A Multidisciplinary Approach) (1998): "تُمثَّل الأيديولوجيات وتُعاد إنتاجها وتُنشر في المجتمع بشكل رئيسي عن طريق الخطاب والتواصل، وخاصة الخطاب الإعلامي والتعليمي والسياسي." يوضح فان دايك أن الخطاب هو الوعاء الذي تُنقل عبره الأيديولوجيات (وهي البنى الذهنية الاجتماعية الأساسية للمجموعات). ومن خلال الخطاب، يتم ترسيخ الهيمنة من جهة، ومقاومتها من جهة أخرى، حيث تُستخدم

استراتيجيات لغوية محددة (مثل تمثيل الذات إيجابياً وتمثيل الآخر سلبياً) لتشكيل الآراء الاجتماعية. بالتالي، يكشف تحليل الخطاب النقدي عن كيفية عمل الهيمنة الاجتماعية عبر التلاعب اللغوي والتواصلي.

3. الخطاب والتفاعل الاجتماعي عند نورمان فيركلف

يربط نورمان فيركلف (Norman Fairclough)، وهو أيضاً من رواد التحليل النقدي للخطاب (CDA)، الخطاب بشكل وثيق بالممارسة الاجتماعية والأنظمة الثقافية. يرى فيركلوف أن الخطاب يمثل العلاقة الجدلية بين النص والسياق. يقول فيركلوف في كتابه "اللغة والسلطة" (Power and Language) (1989): "إن الخطاب هو ممارسة اجتماعية، وليست مجرد ظاهرة لغوية خالصة." يؤكد فيركلوف بهذه المقولة أن الخطاب يجب أن يُدرس بثلاثة أبعاد متداخلة: النص نفسه (البنية اللغوية)، وممارسة الخطاب (عملية الإنتاج والتلقي)، والممارسة الاجتماعية (السياق الثقافي والأيديولوجي). هذا التحليل يربط الخطاب بالتغير الاجتماعي؛ حيث إن الخطاب ليس مجرد نتاج للواقع الاجتماعي، بل هو عنصر فعّال في تشكيل هذا الواقع وتغييره أو الحفاظ عليه.